(١) ما الدعوة الإسلامية ؟

الدعوة الإسلامية : هي دين الله الذي بعث به الأنبياء جميعًا تجدد على يد محمد ﷺ خاتم النبيين كاملا وافيًا لصلاح الدنيا والآخرة .

وهي تستمد بقاءها من أمرين :

الأول : كونها من عند الله رب العالمين .

والآخر : صلاحيتها لكل زمان ومكان بعد مجيئها على يد خاتم النبيين والمرسلين .

ونبوات الأنبياء السابقين ورسالتهم – وإن تحقق فيها الأمر الأول – بالنسبة للأمر الآخر كانت محدودة الزمان والمكان ، وقد يبعث الله أكثر من نبي في وقت واحد وفي مكان واحد .

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [سورة فاطر : ٢٤] .

وهذا تدرج طبيعي في الوصول إلى الكمال .

obeikandl.com

وطبيعي أيضًا أن تستوعب الرسالة الخاتمة أصول الرسالات السابقة وتتحدث عن رجالاتها وتعد الإيمان بهم أصلا في الإيمان بها .

وهم جميعًا يأخذون من مشكاة واحدة ، ويدعون إلى إله واحد .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٥] .

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [سورة الزمر : ٦٥] .

فما هذه الدعوة إذن بعد أن تمت وكملت على يد خاتم النبيين محمد ﷺ ؟

يمكننا أن نقول : إنها دين الله الذي ارتضاه للعالمين تمكينًا لخلافتهم ، وتيسيرًا لضرورتهم ، ووفاء بحقوقهم ، ورعاية لشئونهم ، وحماية لوحدتهم ، وتكريمًا لإنسانيتهم ، وإشاعة للحق والعدل فيما بينهم .

هي الضوابط الكاملة للسلوك الإنساني ، وتقرير الحقوق والواجبات .

وهي قبل ذلك وبعده : الاعتراف بالخالق ، والبر بالمخلوق .

لكن هذا القول – وإن صور الحقيقة من بعض جوانبها أو من حيث نتائجها – لا يقربنا كثيرًا من أصول هذه الدعوة التي لا تتغير بتغير الزمان أو المكان . فما هذه الدعوة إذن من حيث أصولها العامة التي تضمن النتائج العملية لوحدة الإنسانية ، وأمنها وسلامها ، وسعادتها وبرها ؟

يمكن تصورها في ظل الأمور الآتية :

١ – أن هذه الدعوة كما ذكرنا هي دعوة النبيين جميعًا تجددت تامة كاملة على يد محمد ﷺ خاتم النبيين .

ولهذا فرض الإسلام الإيمان بالرسل جميعًا : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا

وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٣٦] .

وعدّ التفرقة بينهم كفرا بهم جميعًا ، وتكذيب أحدهم تكذيبًا لهم جميعًا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [سورة النساء : ١٥٠ ، ١٥١] .

وأنت تقرأ في سورة الشعراء عن قوم نوح : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [١٠٥] .

وعن قوم هود : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [١٢٣] . وعن قوم صالح : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [١٤١] . وعن قوم لوط : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [١٦٠] . وعن أصحاب الأيكة : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [١٧٦] .

ومن هنا نستطيع أن نقرر أن العالم تجمعه في الأصل وحدة دينية . وأن الفرقة في الدين من صنع الأهواء والشهوات يبرأ منها الأنبياء جميعًا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٩] .

إنه بنيان واحد ، عملت فيه أيدي الأنبياء جميعًا ، وما أجمل الإنصاف وأنت تسمعه من فم الصادق الأمين وهو يقول : « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فحسنه وجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يلفون به

ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ! فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » [١] .

٢ – أن رسالات الأنبياء جميعًا دعت إلى هذا الأصل الخالد : « الإيمان بالله واليوم الآخر » .

ولذا أنكر الإسلام على الذين انحرفوا بهذا الأصل ونسبوه إلى الدين ظلمًا وزورًا .

أنكر على اليهود أن يقولوا : « عزير ابن الله » .

وعلى النصارى أن يقولوا تارة : « المسيح ابن الله » وطورًا : « إن الله هو المسيح ابن مريم » :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَاهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

[سورة التوبة : ٣٠] .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [سورة المائدة : ٧٢] .

والإسلام في إنكاره هذا الانحراف بالعقيدة ، إنما يرد الإنسانية إلى وحدة صادقة في ظل توحيد صادق .

وهو يقرر على ألسنة الرسل جميعًا أنهم دعاة إلى الله وحده ، وأنهم ما طلبوا من أقوامهم إلا أن يعبدوا الله ما لهم من إله غيره : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ

---

(١) رواه الشيخان .

رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سورة المائدة : ١١٦ ، ١١٧] .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾

[سورة الأعراف : ٥٩] .

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾

[سورة الأعراف : ٦٥] .

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾

[سورة الأعراف : ٧٣] .

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾

[سورة الأعراف : ٨٥] .

والإسلام في إثباته لرسالات السابقين على هذا النحو الخالد إنما يقدم للإنسانية الحقيقة – التي ظلمتها أهواء الناس وانحرفت بها شهواتهم – في كتاب ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾

[سورة فصلت : ٤٢] .

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾ [سورة الأنفال : ٤٢] .

وكأنه بهذا يقول لأتباع موسى : إن كنتم تؤمنون بنبيكم فهذا دينه فأطيعوه .

ولأتباع عيسى إن كنتم تحبون رسولكم فهذا دينه وسبيله فأطيعوه ولا تظلموه ، وللإنسانية جميعًا : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٣] .

ولم يصدوا عن سبيله ، وهو يطالب أتباعه بتحقيق العدل معهم والإنصاف في معاملتهم .

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [سورة الشورى : ١٥] .

﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [سورة الممتحنة : ٨ ، ٩] .

إن الماء العذب يجري في مجراه الطبيعي .

ومن حق كل إنسان أن يرده حين يرد ، فلا يجد من يصده أو يصرفه عن المورد .

والشمس في مدارها وعلوها تلقي شعاعهاوتبعث ضوءها .

ومن حق كل إنسان أن ينعم بضوئها وأن ينتفع بشعاعها .

فإن رغب إنسان عن النهر وزهد في النور فله ما أراد ، ولن يكرهه أحد على هذا أو ذاك أما من صد عن الماء أو حاول أن يفسده . أو أساء لمن في الضوء أو حاول أن يحجبه .

فمن حق الظمئ أن يطلب الري وأن يحطم الحاجز ومن حق المبصر أن يرى

الضوء وأن يمنع الحاجب ، بل من حق الناس جميعًا أن ينعموا بالحياة في فطرتها السمحة . وما الدين إلا فطرة الله : ﴿ فِطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [سورة الروم : ٣٠] . وأن يتمتعوا بالشمس والهواء والماء والغذاء في مودة وتعارف وإخاء ، وخالق الشمس هو مُنَزِّل الدين ، كلاهما فطرة رب العالمين ، وباريء الأنام ، هو رب الإسلام ، كلاهما أثر للرحمن الرحيم ، وليست حاجة الناس إلى الدين بأقل من حاجتهم إلى الشمس والهواء والماء والغذاء .

ومن عظمة هذا الدين في فطرته ومن آياته في سماحته أنه لا يكره أحدًا على الدخول فيه ولا يأمر أهله إلا بالإحسان لمخالفيه ، فمن حقه أن يقابل إحسانه بإحسان ، وفضله بشكر وامتنان ، وهو يبيح لأتباعه أن يلتقوا مع أهل الكتاب في مصاهرة ونسب ، وللزوجة أن تبقى على دينها بل وأن تذهب إلى كنيستها أو بيعتها في حرية كاملة وبر مكفول .

ونستطيع على ضوء هذا أن نقرر أن هذا الدين بحق هو دين الحرية والعدل والحق والسلام .

٤ – والإسلام بعد تقريره لوحدة الدين ، يقرر وحدة الجنس والنسب فالناس إذا لم تسعهم أخوة الدين – وهي أرحب من الكون – وسعتهم أخوة الأصل الواحد إن هم انعطفوا إلى الأصل والدم .

« كلكم لآدم وآدم من تراب . لا فضل لعربي على عجمي . ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى » .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [سورة النساء : ١] .

ومن حق هذه الأخوة عليهم أن يتعارفوا وأن يتراحموا وأن يتعاونوا فيما بينهم على ما فيه سعادتهم وأمنهم وسلامهم .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [سورة الحجرات : ١٣] .

٥ – اشتمل الإسلام على معاني العدل والرحمة ، والإيثار والإحسان .

والعدل : عنده للعدو والصديق والقريب والبعيد .

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

[سورة المائدة : ٨] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [سورة النساء : ١٣٥] .

ولقد استطاع الإسلام بهديه أن يقيم في نفس المسلم ميزان العدل وهو يسمع الكلمة العربية : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا » [١] . تتردد من فم رسول الله ﷺ ، فيتساءل في حكمة ورشد : يا رسول الله هذا نصرته مظلومًا . فكيف أنصره ظالمًا ؟

فقال ﷺ : « تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه » مع أنه كان يستجيب لهذه الكلمة في جاهليته ناصرًا أخاه ظالمًا كان أو مظلومًا بدافع العصبية الدموية والحمية الجاهلية .

والرحمة : في الإسلام ليست لبني الإنسان فحسب ، بل تعم جميع من في الأرض « الراحمون يرحمهم الرحمن » ، « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » .

---

(١) رواه البخاري .

قال قائل : يا رسول الله إنا نرحم أزواجنا وذرياتنا ، فقال عليه السلام : « ما هذا أريد إنما الرحمة بالكافة » .

« لا تنزع الرحمة إلا من شقي » .

وصدق الله العظيم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٠٧] .

وقد ورد في الحديث الشريف : « بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ بي ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له . قالوا يا رسول الله : وإن لنا في البهائم أجرًا ؟ قال : نعم . في كل ذات كبد رطبة أجر » [متفق عليه] .

والإيثار : يتم مع الضرورة والحاجة : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الحشر : ٩] .

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [سورة الإنسان : ٨] .

وصفة الإيثار خروج من حظوظ النفس إلى حب الخير وعمل البر .

وبه قد يتم أقدس رباط وأكرم حب ، وخالقنا هو الرحمن الرحيم .

والإحسان : مبدأ الإسلام في كل شيء .

« إن الله كتب الإحسان على كل شيء : فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » [رواه مسلم] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٥] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [سورة النحل : ١٢٨] ، ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [سورة الكهف : ٣٠] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [سورة النحل ٩٠] .

ولاشك أن هذه المعاني الإنسانية تجمع الناس على ألفة بارة ، ومحبة صادقة ، وأمن موفور ، وبها تتحقق الوحدة الإنسانية التي ينشدها الإسلام بعقائده الراسخة ، وآدابه الكاملة ، وفرائضه الهادفة .

٦ – والإسلام بفرائضه العملية من صلاة وزكاة وصيام وحج يحقق أكرم المثل التي تنشدها الإنسانية ، ويقيم أبر الروابط التي تصون وحدتها ، وترعى أمنها وسلامها .

فالصلاة فيه : باب لطهارة النفس مع طهارة الحس .

باب لضبط الزمن بضوابط الذكر المتصل .

فلا يأتي على الإنسان زمن ينسى فيه ربه وهو يقف بين يديه فرضا في اليوم خمس مرات .

باب لربط الجماعة برباط الحب في الله على مساواة كاملة ، لا يتميز الناس فيها بغنى أو جاه ، أو جنس أو لون ، بل ينتظم الجميع في صف واحد ، بعد أن دعا إليه أذان واحد ، ويتقدمهم إمام واحد إلى قبلة واحدة لعبادة إله واحد .

فالوحدة سارية في أعمال الصلاة كلها من أولها إلى آخرها ، في طهرها ، وقيامها ، وركوعها وسجودها ، والخروج منها .

فلا ترى في الصلاة الواحدة راكعًا وساجدًا ، بل الكل راكع إذا ركع الإمام ، والكل ساجد إذا سجد الإمام وهم يؤذنون في الحركة والانتقال بهذه الكلمة النيرة الصادقة : « الله أكبر » وتلك هي الدربة العملية لتحقيق المُثُل والفضائل وإشاعة الخير والبر . ويقظة الضمير وخشية الله .

والزكاة في الإسلام : باب لطهر المال بعد طهر النفس ، وإقامة التكافل وإشاعة الحب ، وهي شارة الإعلان عن الثقة الكاملة في الله ، والاعتراف بفضله كما أنها برهان الإيمان اليقظ الذي يدرك أن المال غاد ورائح ، وما عند الله خير وأبقى ،

ولقاء الله حتم واقع : ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [سورة النمل : ٤٠] .

والصوم : وهو يُفرَض في شهر واحد : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٥] أكرم باب لتربية الإرادة والعزيمة ، والخروج من شهوات النفس وحظوظها ، لتظفر بالتقوى التي هي جماع الفضائل النفسية كلها ، وتلك غايته ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ . فهو يجمع الناس على وحدة الطهر والإمساك عن الإثم والتجرد للخالق والبر بالمخلوق .

والحج : باب مؤتمر إنساني عام ، عند الحرم الآمن ، والبيت العتيق ، تلبية لنداء الله واستجابة لأمره وتحقيقًا للمنافع المشتركة ، مؤتمر يتم فرضًا في كل عام تلتقي فيه الوفود من كل جهة ، ومن كل مكان ، فتصهر في بوتقة واحدة ، وتتجانس بصبغة واحدة ، جنسية الإيمان بالله والحب فيه طارحة وراءها تباين الوطن واختلاف الجنس أو اللون ، محققة أكرم مساواة وأصدق تجرد وأكرم منفعة في بلد أمنه رباني : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [سورة البقرة : ١٢٥] بلد يجد فيه الطير أمنه وسلامته ، أفلا يجد الإنسان فيه راحته وطمأنينته ؟ لا مكان في هذا المؤتمر للشهوة الكذوب ، ولا مكان للفرقة أو الإثم أو الفسوق . لا جدال في الحج ، لا تنابز ولا شحناء ، لا حسد ولا بغضاء بل تكريم لحرية الإنسان ، وحقه في الحياة ، وتحريم لدمه وماله وعرضه .

وتكريم للإنسانية ممثلة في وفودها ، التي تعود مزودة بمباديء الخير والرشد ، حاملة أمانة الهدى والحق ، ناشرة في أوطانها أسباب المودة والرحمة ، وهكذا تجد الوحدة الإنسانية في فرائض الإسلام ، سارية سريان الماء في أوراق الشجرة ، قائمة قيام الأعصاب في جسم الإنسان الحي ، كما تجد كلا من هذه الفرائض يحمل خصائص الدين كله كما تحمل الحبة الطيبة خصائص الشجرة المباركة ، وتؤتي ثمارها الطيبة إذا غرست في التربة الصالحة .

٧ – والإسلام كما شرع فرائض العبادات ، ليحقق بها عبادة الرحمن وطهارة الإنسان ، فقد طالب بالعمل في كل ميدان . وهو يقرن العمل الصالح دائمًا بالإيمان .

« لَيْسَ الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ، وإن قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [سورة النساء : ١٢٣ ، ١٢٤] .

وعمر بن الخطاب يقول : « لو أن الأعاجم جاءت بالأعمال وجئنا بلا عمل لكانوا أحق بمحمد منا يوم القيامة » .

إن الإسلام لا يعرف التواكل أو القعود ولا يفرق بين دين ودنيا فالعمل لكليهما عبادة يتقرب بها إلى الله مع حسن النية وشرف القصد .

« من أمسى كالًّا من عمل يده أمسى مغفورًا له » .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا البَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الجمعة : ٩ ، ١٠] .

ومن أجل هذا ترى الرجل يُسأل على عهد رسول الله ﷺ وقد جلس في المسجد في غير أوقات الصلاة :

من يعولك ؟

أخي .

أخوك أعبد منك .

« يا فاطمة بنت محمد ، اعملي لا أغني عنك من الله شيئًا » .

لا تواكل ولا قعود بل حركة وسعي وانطلاق .

لا مكان للفقر أو الجهل أو المرض في دين يقوم على الإيمان والعمل الصالح . والرسول يستعيذ من الفقر كما يستعيذ من الكفر .

ولم يرض لأصحابه أن يعملوا في تجهيز طعام .

وما أيسره – هذا يذبح الشاة وذاك يسلخها – لم يرض أن يقعد وهم يعملون ، بل قال عليه الصلاة والسلام : « وعليّ جمع الحطب » !

الإسلام يفرض العمل فرضا ولا يعد الإيمان إيمانا بدونه ، ويوم المؤمن فيه يبدأ من مطلع الفجر الصادق وظهور النجم المتألق ، فيبتديء يومه بذكر ربه ، وعبادة خالقه ، ثم ينطلق في الأرض يمشي في مناكبها ، ويبتغي من فضل الله .

والإسلام قد رسم حدودًا واضحة للعمل المشروع كما وضع منهجًا متميزًا للمعاملة بين الناس ، وبيّن الحلال من الحرام والنافع من الضار ، وأقام حدوده ومعاملته على رعاية المصلحة العامة ورفع الضرر « لا ضرر ولا ضرار » . وجعل شئون الناس كلها تقوم على قواعد الصدق والحق والعدالة والأمانة ، كما أقام نظامه كله على أساس الاعتراف بالله واليوم الآخر .

لهذا كان قانونه في الأخذ والعطاء ، والبيع والشراء ، وما يشمل دنيا الناس من تعامل موضع التقديس لأنه من صنع الله وكان تحقيقه والتمسك به عبادة يتقرب بها إلى الله ، وكانت شرائعه محققة لصيانة النفس والعقل والمال والعرض والنسل وتلك غاية ما ترمي إليه أوفَى الشرائع وأبرها بدنيا الناس .

٨ – والإسلام لا يعد الإنسان لهذه الدار وحدها .

بل يعده لدار أخرى يجني فيها نتيجة سعيه وعمله وتلك عقيدته الخالدة الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهو اليوم الذي يُجزى فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾

[سورة الزلزلة : ٧ ، ٨] .

﴿ وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٤٧] .

وهو بهذا يحقق أمورًا ثلاثة :

أولها : العناية بحاضر الإنسان ومستقبله : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت : ٦٤] .

ثانيها : تهذيب الأولى بالاعتراف بالأخرى ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾

[سورة المؤمنون : ٦٠ ، ٦١] .

ثالثها : قيام الأخرى على أساس العمل الصالح في الأولى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [سورة فاطر : ١٠] إذ لا يصحح أمر الناس في دنيانا تلك ، بل لا يخفف حدة التوتر فيها ويقيم السلام المنشود ، الذي ينبع من قلب الفرد وضميره ، وتقوم عليه حراسة ذاتية إلا الإيمان بأن وراء الدار دارًا ، وبعد العمل جزاء ، من ورائه جنة أو نار . وأي نظام يقصر عن هذه الغاية ، غاية « الإيمان بالله واليوم الآخر » إنما يقيم في دنيا الناس – وهم يشعرون أنها دنيا فحسب – تنافسًا مسعورًا يقترن بأنانية الجشع وشهوة التغلب وأثرة التكاثر .

لكن الإسلام يقيم نظامه كله بعد الإيمان بالله على الاعتراف باليوم الآخر

وجعل هذا الاعتراف عقيدة يدين بها المسلم وتدور شئونه كلها عليه .

وهي عقيدة تفيض على دنيا الناس بالبر وتجعل التنافس بينهم على الخير ، وتكاد دائرة السلام بين الناس تنحصر في هذه العقيدة وحدها ، وهي إذ تنحصر في هذه العقيدة إنما تتسع لأمن الكون وسلام العالمين .

٩ – والإسلام قد طلب الإيمان به عن طريق النظر والتأمل والفكر وهذه وحدها تتيح للأجيال كلها أن تتآخى وهي تتوافد على هذا الكون ، فترى من آيات الله ما ترى ، ثم ترحل تاركة وراءها نتيجة البحث وأثر السعي حاملة نضارة الإيمان وطهر اليقين .

ولعمري إن الإسلام بهذه وحدها جدير أن يكون خاتم الرسالات وأن تكون دعوته للعالمين .

على ضوء ما تقدم يمكننا أن نقول عن الدعوة الإسلامية : إنها دعوة لصيانة الإنسان ، وتقديس كرامته ، وهو يؤمن بالله الواحد « رب العالمين » .

دعوة إلى الأخوة الإنسانية العامة بلا تفرقة بسبب الجنس أو اللون أو النسب ، دعوة لإقرار الحق والعدل وإشاعة الخير والبر .

دعوة للنظر في الكون والانتفاع بما فيه ، والإقرار بموجده .

دعوة للسلم في أبر صورة وأكرم سبيل .

دعوة للحب والإيثار ، والشفقة والرحمة ومكارم الأخلاق .

دعوة لتهذيب الفرد وتكافل الجماعة .

دعوة لاتساق الإنسان مع الكون بإرادته وعمله ، مع اتساقه بفطرته وطبيعته وآيات الله في الكون وفي خلقه تُبصِّر وَتُذَكِّر وتهدي وترشد : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا

فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [سورة ق : ٦ - ٨] .

« دعوة الإنسانية النامية المتطورة إلى دين الفطرة الخالد الجامع » [١] .

إنها دعوة تُعْرَف في العقيدة بالتوحيد .

وفي الاجتماع باحترام الإنسانية والمساواة بين أفرادها .

وفي دائرة الأخلاق والمنهج بتقوى الله والحياء والتواضع وفي ميدان الكفاح بالسعي للآخرة والجهاد لله .

وفي ساحة الحرب بالرحمة والعاطفة الإنسانية .

وفي أنواع الحكومات بترجيح جانب الهداية على جانب الجباية ، والخدمة على الاستخدام وتعرف في التاريخ بخدمة الإنسانية المخلصة وإنقاذها من براثن الجاهلية والدعوات المضلة الطاغية .

وفي العالم بآثارها الزاهرة الزاهية وخيراتها الفاشية الباقية هي دعوة الله التي ارتضاها للعالمين ، أرسل بها محمدًا ﷺ خاتم النبيين شاهدا ومبشرا ونذيرًا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [سورة ص : ٨٧ ، ٨٨] ، ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٠٦ ، ١٠٧] .

طبيعتها تأبى الإكراه وتتنافى معه ، وسبيلها الحكمة والموعظة الحسنة بل هي لا تعد إيمان المكره إيمانا ، ولا تعد الاعتراف عن طريق الإكراه اعترافًا يدين صاحبه أو يكرمه : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝

---

(١) محاضرة للأستاذ « أبو الحسن الندوي »

فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ، سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُونَ ﴾ [سورة غافر : ٨٤ ، ٨٥] .

نعم طبيعتها تأبى الإكراه ، وواقع الأمر فيها ، أن الواحد من المسلمين كان يُكره على الخروج من هذا الدين فلا يزيده إلا اعترافًا به وتمسكًا بتعاليمه ، وقد خرج المسلمون من ديارهم وأموالهم مكرهين لم يقبلوا أن يخرجوا قط على دينهم أو ينطقوا بكلمة الكفر ولو بذلوا أرواحهم ، مع أن القرآن قد رفع عنهم الحرج . ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ [سورة النحل : ١٠٦] .

ما ذلك إلا لأن الدعوة في سماحتها وطهرها ، والتقائها مع الفطرة ، تأخذ طريقها الطبيعي إلى النفوس ، وفي حقائقها الباقية ، ونظرتها إلى الكون ، وطلبها الإيمان عن طريق التأمل والفكر ، تأخذ بالألباب وتأسر العقول ، وفي آدابها وفضائلها وما اشتملت عليه من خير وبر ، وحق وعدل ، وسلام ورحمة تملك الوجدان .

وفي شريعتها السمحة ، ورفعها الحرج ، وتوخيها اليسر ، وتقديرها لمصالح الناس ، ورعاية حقوقهم ، ما يجمع أمر الناس عليها ، ويزيد تعلقهم بها ، وفي تفصيلها ما يستلزم التفصيل في شئون العقيدة والعبادات ، وهي التي لا تختلف باختلاف الزمان والمكان .. ما يضمن لها في كل عصر دوام الثبات والاستقرار .

وفي إجمالها ما يستوجب الإجمال من شئون السياسة والمعاملات ، وهي التي تختلف باختلاف الزمان والمكان ، ما يجعلها صالحة لكل زمان ومكان .

فهي في إجمالها ترشد إلى الحق والعدل في صورتهما الكاملة وتترك الصورة التي تختلف باختلاف البيئة وظروف المعيشة توضع في الإطار الذي يتفق مع قانون الحق والعدل ويتمشى مع قاعدة الشرع « لا ضرر ولا ضرار » .

ومع كل ما تقدم ويدافع الإيضاح والتبيين يمكننا أن نتساءل :

(٢) وهل تصلح دعوة الإسلام لأن تكون دعوة عالمية ؟

إن نصوص الإسلام وواقعه العملي يدلان دلالة قاطعة على أنه دين عالمي وأنه رسالة الله للعالمين .

ولكننا نود ، قبل أن نتعرض لنصوص القرآن والنظر في الواقع العملي ، نود أن نتعرف على الخصائص التي يجب أن يشتمل عليها الدين ليكون عالميًّا وصالحًا لكل زمان ومكان ، وأن ندرك مكانة الدعوة الإسلامية من هذه الخصائص .

نجمل أمر هذه الخصائص في ثلاث :

(أ) وفاؤه بحاجة الإنسانية جميعًا ، فيما يصون وحدتها ، ويرعى إنسانيتها ، ويحمي أفرادها في العاجل والآجل .

(ب) تشريعاته التي تضمن قيام الإنسانية كلها في محيط واحد ، لا تنزع معه إلى عصبية دم ، أو اختلاف لون ، أو فرقة جنس .

(جـ) اتساقه مع حقائق الكون وخصائص الوجود ، بحيث لا يتعارض مع ما يثبت من حقائق العلم ، أو يختلف مع منطق الفكر .

فهل تضمنت الدعوة الإسلامية كل ذلك أو قصرت عنه ؟

الحق أن كل شيء في الإسلام ينهض بهذه الخصائص ويفي بها . عقيدته التي تؤمن أن الله واحد تحقق وحدة الإنسانية في القصد والسلوك ، وهي ترى الله في سعيها وتخشاه في سرها وعلنها ، ولا شيء يصون السلوك ويحفظ السعي ويوقظ الضمير مثل معرفة الله ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [سورة النازعات : ١٩] .

وهي أيضا تحصن الفرد من غوائل الهوى ودوافع الشهوة فيسعى في الأرض بخلق السماء ويتطلع إلى السماء بجميل السعي في الأرض ، وهي كذلك تقيم المساواة بين العباد جميعًا ، فتجعلهم أمام الله سواء ، يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح ،

فتنتفي مع هذه العقيدة عصبية الدم واللون والجنس ، وتحيا عصبية الإخاء والإيمان والحب ، ولهذا جمعت هذه العقيدة من أول نداء بين بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي وعمر القرشي مع محمد الرسول النبي ﷺ .

وهذه العقيدة أيضًا تحتضن الوجود كله والوجود يرحب بها ويشهد بجلالها ، ويشاركه في الترحيب الفكر المتأمل والقلب المبصر والفطرة الهادية .

عباداته أيضا المتصلة بالعقيدة من صلاة وصوم وزكاة وحج كلها نشيد رباني يتفاعل مع الكون ويهذب السلوك ويقيم المودة ويحقق رقابة الضمير ويجمع الناس على الخير والبر ، ويؤلف بين قلوبهم بالإيثار والرحمة ، ويجعلهم إخوة إيمان يحيون للحق والعدل ويقيمون أمرهما مع العدو والصديق وهم يقفون في محراب الله على مساواة كاملة في اليوم الواحد مرات ومرات ، ويتجردون له في القصد والسعي أفرادًا وجماعات . فالعبادات كما سنرى إن شاء الله تفي بالخصائص كلها ، بل كل عبادة منها تحمل هذه الخصائص وهي تتصل بعقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر .

كذلك آداب السلوك والأخلاق والمعاملة تفي بهذه الخصائص ما دامت تستمد وجودها أيضًا من الإيمان بالله واليوم الآخر .

فإذا تأملنا الإسلام بعد ذلك داعيًا إلى العلم آمرًا به ، وأدركنا أن معجزته الباقية لم تعتمد على خوارق العادات ، بل اعتمدت على التأمل والنظر والفكر – ألفينا أن هذه المعجزة وحدها أكبر برهان على عالمية الإسلام إذ لو كانت إحياء ميت أو موت حي أو انتقال جبل أو تحرك عصا لانتهت بزمنها ولم يتأثر بها إلا من رآها أو عاش في عصرها . أما أن تكون المعجزة معجزة علم ومعرفة ، معجزة كتاب يتحدث عن حقائق الوجود ويسترعي النظر إلى الآيات الباقيات التي تتوافد عليها الأجيال – وهي باقية تنطق بالصدق وتبرهن على الحق – فتلك آية الخلود ودلالة البقاء .

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝

الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون * وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون * وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون * وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون * إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين ﴾ [سورة يس : ٣٣ - ٤٤] .

ألست معي في أن هذه الآيات في الأرض وفي السماء وفي الزرع وفي الماء وفي النفس وفيما نعلم وما لا نعلم ، وفي الليل والنهار وفي الشمس وفي القمر ، وفي الفلك وفي البحر .

ألست معي أنها آيات باقيات تفد عليها الخلائق فترى وتتأمل ثم تمضي وترحل وهكذا دواليك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؟ ثم ألست معي في أن معجزة هذا الدين هي معجزة الفكر البشري على اختلاف زمانه ومكانه ،

معجزة الحقائق القائمة والأصول الثابتة والآيات الباقية ،

معجزة التفاعل مع الكون والتآخي معه ،

معجزة الفطرة في بساطتها واليقين في سماحته والسلوك في اعتداله والسعي في استقامته ،

معجزة العدل مع العدو والصديق والوفاء مع القريب والبعيد ، والصدق في الشدة والرخاء ومعرفة الله في السراء والضراء .

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [سورة المائدة : ٨] . هذا برهان العدل ، والنزاهة في الحكم ، والتجرد للحق .

﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة البقرة : ١٩] .

هذا طريق الأمن ودليل السلم وآية المودة .

﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [سورة النمل : ٤٠] .

هذا برهان اعتدال النفس مع النعمة وتواضعها مع العطاء واستقامتها في السراء والضراء ﴿ يَا بَنِىَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْـَٔسُوا مِن رَوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٨٧] .

هذا برهان الثقة في الله ، بل دليل حيوية هذا الدين وامتداده ، فالرجل قد فقد من البلاء بصره ولم يفقد في الله أمله ، وتكاد تلمس حركة النفس والحس في كلمات الرجل اذهبوا . تحسسوا . لا تيئسوا . حركة النفس باليقين وحركة الحس بالسعي وأخذ الأسباب .

حقائق قائمة ثابتة مع الزمان والمكان يستضيء بها الوجود الإنساني ويرتبط معها كيانه كما يستضيء الكون بضوء الشمس وتنجذب إليها كواكبه ونجومه .

حقائق يرحب بها العقل ويشاركه في الترحيب بها القلب والوجدان

أفلا تكون تلك هي الرحمة المهداة شريعة العالمين وهداية الرحمن ؟

أي شيء تريده الإنسانية أوفى وأكرم وأبر من هذا ؟

أي شيء بقي لها بعد أن يجد الإنسان أمنه وطمأنينته وحماية عرضه وماله وهداية عقله وحماية نسله ؟

ماذا بعد أن تجد الإنسانية أمنها وسلامها ووحدتها وإيثارها وتعاونها وبرها ؟

ماذا بعد أن يأنس الفكر البشري بالكون وهو يعمل بوحي من الدين ويجد

الدين سنده من نتائج التأمل في الكون والانتفاع بما فيه .

وماذا بعد أن تحل مشاكل العيش وشئون الاقتصاد بوحي من التقدير لأمر الإنسان ، وحريته ، وكرامته ، وتقديس حقه بلا ضرر أو ضرار ؟

وماذا بعد أن تصان الأسرة في ظل عقيدة تبر بها وآداب تحفظها وحقوق ترعاها وتكافل ينمي خصائصها ؟

وماذا بعد أن تلتقي دنيا الناس بدين الله في كون آياته تحفظ كليهما الأولى بالمنفعة والزينة والآخرة باستقرار اليقين وصدق الإيمان ؟

دين يفي بكل هذا وأكثر منه ، ويفتح أمام الإنسانية باب التعاون على الرفعة الدائمة في كل ميدان ولا يقنع أبدًا بقدر من العلم مهما بلغ شأنه بل يطلب المزيد ويحث على الاستزادة : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [سورة الإسراء : ٨٥] .

ويطلب تنمية هذا القليل : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [سورة طه : ١١٤] . أفلا يكون هذا الدين دعوة الله للعالمين ؟

ألا إن الإنسانية وهي تخترق بوسائل العلم الطوق الأرضي وتنشد السفر إلى القمر أو الكواكب لتجد في الإسلام دعوة إلى أبعد مما تنشد ، وبداية الأمر في هذا الدين رحلة نبي إلى الملأ الأعلى .

وبدايته في أخذ الأسباب : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [سورة العلق : ١ - ٥] .

وكل شيء في تعاليمه يُعْنَى تمامًا بإبراز الخصائص الذاتية للإنسان والانتفاع بها على أوسع مدى ، مع إقامة العدل في ذات الإنسان ، بين فضائل روحه ومطالب جسده ، ليتحقق العدل في خارج النفس بعد تحققه في ذاتها وفي هذا رعاية للإنسان

من جميع جوانبه ، ورعاية للإنسانية في جميع شئونها ، وهي تتقدم في مضمار البحث وتتعرف على أسرار الخلق ، وتدرك حكمة الوجود . لكننا مع كل هذا يواجهنا أقوام ينكرون على الإسلام عالميته ، إما عن جهل أو تجاهل ، أو قصور أو تغافل أو علم مسخر للهوى أو حقد مقترن بحب الغلبة والسيطرة . ولا نود أن نسوق دوافع هذا الإنكار ، قبل أن نتأمل وجهه ، ونرى حججه ، وهي نفسها تكشف عما وراءها من جهل أو حقد أو غرض شريف أو قبيح . ولقد قرأت أخيرًا ما كتبه الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد في الرد على بعض هؤلاء الطاعنين أو المنكرين في مجلة الأزهر بعددي صفر وربيع سنة ١٣٨١ هـ .

ويمكننا في هذا المقام أن نسرد حجج الطاعنين ثم نوليها برد المؤمنين وقبل أن نفعل نود أن نسجل بعض نصوص القرآن والسنة التي تؤكد عالمية هذا الدين وبعض الآيات التي قد يظن أنها لا تفي بذلك ، بل تخصصه ببيئة الرسول أو بقومه من العرب .

من الآيات القاطعة بعالمية الدعوة الإسلامية :

بسم الله الرحمن الرحيم

(أ) ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [سورة الفرقان : ١] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٠٧] .

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [سورة ص : ٨٧ ، ٨٨] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سورة سبأ : ٢٨] .

﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [سورة الفتح : ٢٨] .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٨] .

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ [سورة يس : ٦٩ ، ٧٠] .

﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَذَا القُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٩] .

وفي الحديث الصحيح : « كان كل نبي يُبعث في قومه خاصة وبُعثت إلى كل أحمر وأسود ، وإن بلالا أول ثمار الحبشة ، وإن صهيبًا أول ثمار الروم » .

تلك هي بعض الآيات وبعض الأحاديث التي تؤكد في صراحة كاملة عموم الرسالة .

أما الآيات التي لم يحسن الطاعنون فهمها وظنوها تتناقض مع الأصل أو تخالفه فهي قوله تعالى :

(ب) ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ٢١٤] .

﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ القُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [سورة الشورى : ٧] .

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

[سورة القصص : ٤٦] .

وقف الطاعنون عند الآيات الأخيرة وظنوا أن فيها سندًا لما يدعون وتحقيقًا لما يطمعون ، زعموا أن هذه الآيات تدل على أن الدعوة الإسلامية خاصة ببيئة معينة وإن غيرها من الآيات التي تدل على العموم تحمل عليها .

وهذه هي دعواهم :

١ – الرسول عربي ودعوته إلى الجزيرة العربية فحسب وكتابه « قرآنا عربيا »

وحكمه « حكمًا عربيا » وميدان نشاطه ما ورد في كتابه .. ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [سورة الشورى : ٧] .

فهو إذن رسول لقومه العرب دون سواهم .

٢ – الآيات القاطعة والتي أوردنا بعضها في المجموعة (أ) تحمل عند هؤلاء على ما سبق تقريره من تحديد ميدان نشاطه بالعرب دون سواهم ولذا لم يحاول الرسول أن يصرف اليهود والنصارى عن دينهم ، لأنه لم يعد نفسه سوى رسول كبقية الرسل ، بُعث للأميين فحسب ، وعند هؤلاء إن لم تحمل الآيات في المجموعة (أ) على الآيتين في المجموعة (ب) وقع التناقض في القرآن الكريم نفسه .

أما قصة الكتب التي أرسلها الرسول للملوك فهي عند القوم أسطورة ابتكرها الخلفاء والقادة ليبرروا فتوحهم تبريرًا دينيا .

تلك خلاصة لرأي المستشرق الهولندي « فنسنك » كما أوردها المرحوم الدكتور حمودة غرابة في كتابه : « الأشعري » .

وما أورده الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد من كلام الأستاذ سوندرز المحاضر بقسم التاريخ بجامعة نيوزلاندة في مجلة الأزهر بعددي صفر وربيع سنة ١٣٨١ هـ . لا يخرج عما قدمنا اللهم إلا في عنوان المحاضرة « الخليفة عمر المستعمر العربي » الذي خلص منه المحاضر إلى أن انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية كان من عمل الخليفة الذي وصفه بالمستعمر .

ولم يكن ذلك في برنامج الدعوة المحمدية ، لأن محمدًا ﷺ لم يفكر في دعوة غير العرب إلى الإسلام .

ولا عجب أن يُظلَم عمر رضي الله عنه بعد أن ظلمت الكلمة نفسها على يد القوم فإن كلمة « استعمار » معناها في الأصل طلب التعمير .

والاستعمار بهذا المعنى نبيل القصد إذا لم يقترن باعتداء على حقوق الناس ،

لكن نفوس القوم وما انطوت عليه من حب الغلبة والبطش والاستغلال واستنزاف دماء الشعوب جعل الكلمة المشرقة تلف في كفن أسود قاتم من تصرف القوم وسلوكهم .

فإذا سمعت كلمة « استعمار » في عصرنا هذا فُهِمَ منها الاستعباد ، والقهر والغلبة ، واستلاب الحقوق ، واستذلال الشعوب ، لذا أصبحت الكلمة ممقوتة مظلمة .

فماذا يعني المحاضر من كلمة المستعمر بالنسبة لعمر ؟

إن كان يعني طلب التعمير والتشييد ، بجميع صوره من بناء النفوس وإقامة الحضارة – فعمر مستعمر إسلامي ينشد للأرض كلها بوازع من دينه تعميرًا يقوم على الحق والعدل ، وحياة تشيّد على التعاون والرحمة والبر ، وتحاط بخشية الله وتقواه .

وهذا ما لا يقصده المحاضر طبعًا .

هو يريد الاستعمار بمفهومه الحديث ، على يد القوم الذين شوهوا الألفاظ ، وظلموا الكلمات ، مع ظلمهم للأفراد والشعوب والجماعات .

وما كان عمر إلا رمزًا للعدل في أبين صوره وللحق في أجلى معانيه .

كان مثال الخشية من الله والخوف منه ، زاهدًا فيما عند الناس ، راغبًا فيما عند الله ، فلم يحيا الرجل إلا حياة الفقراء في أمة امتلأت بالغنى وفاضت بالخيرات ولم يؤثر عنه في سلوكه مع العدو والصديق إلا النزاهة والعدل والصدق .

ومواقف الرجل وتاريخه من الوضوح والبيان لا تخفى إلا على مكابر أو عليل .

وليس يصح في الإفهام شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

إن عمر قد عمَّر بلادًا أماء إليها الدين المنحرف والوثنية الضالة والبغي المتسلط :

مسيطر الفرس يبغي في رعيته وقيصر الروم من كبر أصم عم
يعذبان عباد الله في شبه ويذبحان كما ضحيت بالغنم
والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم كالليث بالبهم أو كالحوت بالبلم

فأضاءها بنور الإسلام وحقيقة الإيمان مدفوعًا بتعاليم دين قد اكتمل ورسالة خاتمة فيها سعادة البشر .

والإسلام ما حل أرضا إلا نعمت بنعمة العدل واطمأنت بأمن اليقين ، والإيمان ما اختلط بقلب إلا عاش بفطرته رحمة للعالمين .

وإذا نحن أدركنا أن كلام الأستاذ سوندرز عن الدعوة الإسلامية مرتبط بالحديث عن فلسطين ألفينا أن المراد من سوق هذا الكلام هو الوصول إلى هذه النتيجة .

عمر مستعمر عربي ، وفلسطين وقعت تحت ضغط المستعمر العربي لا بوازع من دين ، بل بدافع من سياسة .

والتخلص من أبناء المستعمر الغاصب أمر طبيعي تقره العدالة ويتطلبه الحق ! ومن ثم قضية اليهود في فلسطين قضية عادلة لأنها رد لحق وإزالة لاستعمار أخذها بلا حق ! وفي سبيل الوصول لهذه الغاية وتلك النتيجة لا بأس أن تزوّر وقائع التاريخ ، وأن تشوه حقائقه ، وأن تفسر الوقائع والحقائق بأسلوب الاستعمار الحديث ، الذي ترتبط دوافعه بمنافعه .

وما أجمل النصح القرآني أن يقدم في هذا السبيل : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٤٢] .

إن نبي الإسلام لم يفارق دنيا الناس إلا بعد أن حمل إليها خبر السماء بكمال الدين : ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [سورة المائدة : ٣] .

وإن أتباعه من بعده لم ينطلقوا إلا بوحي من هذا الدين ولم يصدروا في كل شئونهم إلا بوازع من تعاليمه .

وإن الأرض التي انساب إليها هذا الدين – وقد طال شوقها إليه – تقبلته في يسر : ﴿ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [سورة الحج : ٥] .

وقد كانت من قبل قاحلة مجدبة سوداء مظلمة .

ولئن كانت قد أينعت على يد الأنبياء من قبل ، فإنها على يد الأتباع قد أصابها إعصار فيه نار فاحترقت .

فلما انساب إليها هذا الدين تقبلته في يسر مستبشرة به آمنة في ظله .

وتلك وقائع التاريخ على لسان المنصفين من أبناء الغرب :

لما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن ، وعسكر أبو عبيدة في فحل ، كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب يقولون : « يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا » .

وأغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم .

وهكذا كانت الشعوب في بلاد الشام إبان الغزوة التي وقعت بين سنتي ٦٣٣ م ، ٦٣٩ م والتي طرد فيها العرب جيش الروم « تدريجيا » .

وهذا أمان عمر الذي – « يصفه الكاتب بأنه المستعمر » – أعطاه أهل إيلياء ، وموقفه عندما زار الأماكن المقدسة في أرض الشام .

بسم الله الرحمن الرحيم : « هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر

ملتها . إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم » .

وقد زار عمر الأماكن المقدسة يصحبه البطريق ، وقيل : إنه بينما كانا في كنيسة القيامة وقد حان وقت الصلاة طلب البطريق إلى عمر أن يصلي هناك ، ولكنه بعد أن فكر اعتذر وهو يقول : « إنه إن فعل ذلك فإن أتباعه قد يدعون فيما بعد أنه محل لعبادة المسلمين » .

ثم لنتأمل ما فعله أحد قواد الإسلام في عهد عمر :

لما حشد الإمبراطور هرقل جيشا عظيما ليصد قوات المسلمين كان لزاما على المسلمين نتيجة لما حدث أن ركزوا كل نشاطهم في المعركة التي أحدقت بهم ، حينئذ كتب أبو عبيدة إلى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جبي من الجزية من هذه المدن ، وكتب إلى الناس يقول : « إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم » .

وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة ، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين ، وقالوا : « ردكم الله علينا ونصركم عليهم (الروم) فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا وأخذوا كل شيء بقي لنا ! » [1] .

أهذه أساليب مستعمر ، أم تعاليم نبي مرسل ؟

أهذا تسلط ، أم بر ورحمة ؟

---

(١) الدعوة إلى الإسلام : للسير توماس أرنولد . ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وصاحبيه عبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي .

لذا لم يعرف التاريخ قط أن هذه الأرض ، وقد تفيأت بظلال الإسلام قد طلبت أو طالبت أن تنخلع عنه أو ترضى به بديلا .

بل إنها صارعت قوى البغي التي أرادت أن تردها عن الحق أو تصرفها عن القصد ، وإذن فاستجابة الأوطان لهذه الدعوة هي استجابة الحنين والحب بلا تسلط أو بغي .

استجابة وليد لقي صدر أمه بعد أن أبعده أرباب الهوى ، واختطفه قطاع الطريق ، استجابة الفطرة التي هودها الهوى أو نصرها الكذب . « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

إن أرضا تشوقت بعد ظمإ إلى الوابل يحيي مواتها ، وبعد ظلام إلى شمس تطلع فجرها وتكشف نهارها .

قد وجدت في الإسلام حياة ونورا وهداية ورشدا ، وجدت فيه كرامة الفرد وحريته ، وتماسك الجماعة وتعاونها .

أفيكون ذلك استعمارًا فرضه المستعمر العربي عمر بن الخطاب بدافع من سياسة لا بوحي من دين ؟

إن القوم وهم محجوبون عن هداية الحق ونور العدل أو مدفوعون بدافع الجحود والحقد يريدون أن يشوهوا التاريخ وأن يبدلوا الحقائق وأن ينكروا فضل الرجال ، وما دروا أن هؤلاء الرجال هم أصحاب الفضل الأول في يقظتهم وإخراجهم من ظلماتهم .

والتاريخ يشهد أن الدنيا لم تر قوما حرصوا على العلم مقرونا بالعمل مثلما فعل المسلمون ، فقد طلبوه من القريب والبعيد وبذلوه للعدو والصديق ، وجعلوا أمره كالشمس والهواء فطريا في الأخذ والعطاء .

وحكموا أنفسهم بآدابه وهذبوا حياتهم بنتائجه ، وفرضوا على أنفسهم نشره

وكرموا أهله ، وجعلوا من البلاد التي أشرق عليها دينهم منارات للمعرفة والعلم النافع والعدل الصادق كما جعلوا منها موئلا للخير والبر ومحرابا للسلام والأمن .

وهذه حقائق لا يداهن فيها إلا جاهل بالتاريخ لم تكتمل له أسباب معرفته ولم تستقم نفسه لتقبل حقائقه .

والحق ما قاله الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد :

« إن ضخامة الخطأ مع سهولة العلم بالصواب خليقة أن تفتح باب الاتهام في سلامة المقصد قبل الاتهام في سلامة التفكير ! » .

ولست هنا بصدد الرد على هؤلاء الطاعنين بإبطال دعواهم وإثبات أن الإسلام دعوة الله للعالمين ، فذاك موضوع الكتاب كله .

وسيرى القارئ كما قلت أن الروح العالمية سارية في كل شيء فيه سريان الماء في الشجر ، في كل شيء ، في أصوله وفروعه وفي عقائده وعبادته ، وفي أخلاقه ومعاملاته ، بل في شمائل الرسول وفضائله وفي سلوكه وعمله ، وإنما أردت هنا فقط أن أنبه إلى أن سدودا من الأهواء تتساند لتحول بين مد الإسلام وسائر البشر ، وركاما من الأحقاد يتجمع باسم العلم ليصور أن هذا الدين دين العرب وحدهم دون سواهم .

وما أخطر هذه الدعاوي الكاذبة على مستقبل الإنسانية كلها وهي تنشد لنفسها الأمن والسلام .

وما أخطرها حين تساق – باسم العلم – المتجرد عن الإنصاف والنزاهة .

إن مسألة الرد على هؤلاء وإبطال دعواهم أمر هين يسير وخاصة أن هذا الدين نفسه شمس مشرقة تبدد ظلمات الباطل وتكشف عن الحق المبين ، وإنما الخطر كله في أن تُساق الشعوب إلى أتون حرب مهلكة ، وأن تصد عن الحق المبين في وقت هي أحوج ما تكون فيه إلى الأمن العادل ، والسلام الصادق .

لقد صار السلام ميدانا تزكو فيه تجارة الأسلحة ، وينشط معه سماسرة الحرب ، ينشطون تحت اللواء الأبيض والغصن الأخضر ، لأنه سلام الحذر والخوف والترقب ، لا سلام الثقة والأمن والطمأنينة ، وارتفعت شعارات الأمن وهي تخفي وراءها أسباب الغلبة والبطش بل وسائل الدمار والخراب .

كل يدّعي العمل من أجل السلام ويتولى الدعوة إليه ، ويبرهن على صدقه بالاستعداد للحرب والتفنن في وسائله .

ووقف العالم كله في حيرة مذهلة ، وهو يرى بعينيه المصير المنتظر وهو في حيرته يتساءل : هل إلى الخروج من سبيل ؟

وقد عجزت المذاهب المعاصرة أن تدله على الطريق أو ترسم له سبيل السلام المنشود ، فيا ليت هؤلاء الذين يصورون الإسلام بغير صورته ليحولوا بين العالم وبين فطرته ، يا ليتهم يدرسونه أولا على حقيقته أو يسكتون عما يجهلون حتى لا يكونوا سببا في شقاء الإنسانية التي تتقطع أنفاسها وهي تطلب معالم الطريق .

إن الإسلام دين الله للعالمين ، فما لهؤلاء القوم يصورونه دينا لقبيل دون قبيل ؟

وإن المسلمين يؤمنون بأن الله « رب العالمين » . لا كما يزعم اليهود أن رب العالمين إلـٰههم وحدهم دون سواهم .

فَلِمَ لا يتعرف القوم على هذا الدين ليعرفوا خصائصه ويدركوا مقاصده ؟ وإذا لم يفعلوا فمالهم يرمونه عن جهل ويسيئون إليه باسم العلم ، وهم يسيئون إلى العالم من حيث لا يعلمون بل إلى أنفسهم وهم لا يشعرون ؟

لِمَ هذا ؟

هل هي الأحقاد والمطامع ؟

أو هي الأسلاب والمنافع ؟

إن الصد عن دين يملأ العالم كله بالأمن ، ويمسك زمام الإنسان راشدًا بالإيمان جريمة لا تقل أبدًا عن جرائم مجرمي الحرب ، إن لم تكن أم الجرائم كلها ، إن العالم في حيرته يتساءل : هل إلى الخروج من سبيل ؟

ومن واجبنا وقد عرفنا الطريق أن نرشد الإنسانية إليه : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٣] .

طريق السلام هو الإسلام ولا شيء غيره .

إن أقرب الطرق إلى الغاية هو الطريق المستقيم ، وهو خط تتضح معه غاية الناس ، ويتوحد سلوكهم .

أما الخطوط المعوجة فإنها تذهب بالإنسانية في أودية مختلفة وفرقة طائشة .

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ .

إن العالم كله قد تشابك في وحدة ذهبت معها الحدود والسدود وقصرت المسافات والزمن بفعل الأثير .

فأي خبر في أي جزء من الأرض يمكن أن تتناقله الدنيا في لحظة واحدة وأن يعرفه العالم كله في لمح البصر .

فأي غرابة في أن يكون للعالم كله دين واحد ، والوحدة في العالم قد بدت طبيعية من جميع الوجوه ؟

وأي غرابة في أن يأتي كتاب هذا الدين بلغة واحدة ؟

والإنسانية كلها تتعامل في مجمع واحد بلغاتها المختلفة فلا يتعثر التفاهم ولا يستبهم القصد .

وإذا لم ينزل القرآن بلغة واحدة ، لغة من نزل بينهم ليحملوه إلى الناس ويبلغوه للعالمين فماذا يمكن أن يكون ؟

إن من يقدر غير ذلك معناه كما يقول الأستاذ العقاد :

« إنه يمنع أن توجد في العالم دعوة عالمية إنسانية على الإطلاق ، أو يفترض فيمن كان يرسل بهذه الدعوة أن ينطق بألسنة الناس أجمعين » .

وهذا وذاك لا يقره منطق ولا يستقيم معه دليل .

فإذا جاء القرآن بعد ذلك ليرسم للرسول ﷺ طريق التدرج في الدعوة والبداية فيها بقوله : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ٢١٤] فأي غرابة أن تكون بداية الانطلاق إلى العالم دعوة الأهل والأقربين ؟

لقد عرض الرسول ﷺ الإسلام على أهله وعشيرته وقومه ، فاستجاب منهم من استجاب ، وأعرض من أعرض .

وتعرض المستجيبون لبلاء شديد ، دفع الرسول – بأمر ربه – أن يخرج بهم إلى دائرة غير دائرة الأهل والعشيرة ، في هجرة خرجوا بها عن حدود أوطانهم بعد أن خرجوا من شهوات أنفسهم .

امتد المسلمون معها بفكرتهم وانطلقوا بدينهم وهم في امتدادهم وانطلاقهم لم يعرفوا معنى السدود أو الحدود أو التعصب للجنس أو اللون .

ألست معي في أن البداية بالأهل والعشيرة أمر طبيعي لا يتعارض أو يتناقض مع الامتداد الواسع للدعوة الإسلامية في زمان أو مكان ؟

وإذا كان القرآن الكريم قد قال بعد ذلك : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [سورة الشورى : ٧] فما المفهوم لكلمة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ؟

الواقع أن هذه الكلمة لا تخصص الدعوة بالجزيرة العربية كما لا يخصصها وصف القرآن بكونه عربيا لأن « وَمَنْ حَوْلَهَا » يمكن أن تشمل العالم كله .

يقول المرحوم الدكتور حمودة غرابة :

« لو سلمنا بأن قوله تعالى : ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ تحديد لميدان النشاط فعلا لوجب على « فنسنك » ألا يسلم أيضا بأنه رسول إلى العرب جميعا . فإن مدلول ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ عرفا لا يمكن أن يتعدى اليمن مثلا . وأن يتوسع في معناها حتى تشمل ما يحيط بها بعدا أو قربا .

فمن أين له التحديد ببلاد العرب فقط ؟ » .

ويقول الأستاذ العقاد :

« إن النوع الإنساني يشمل أم القرى وما حولها ، ولا تعد هداية أهلها عزلا لهم عمن عداهم من الناس ، إذ كان خطاب الناس كافة يمنع أن يكون الخطاب مقصورا على أم القرى ومن حولها ولكن خطاب أم القرى ومن حولها لا يمنع أن يعم الناس أجمعين .

ثم يقول : كيف يستسيغ العقل أن يكون صاحب الدعوة المحمدية خاتم النبيين إذا كانت رسالته مقصورة على قوم لم يأتهم من نذير » .

بقي أن نقول : إن من يقرأ القرآن الكريم وهو الكتاب العربي المبين لا يمكن أن يجد فيه ما يخصصه لفريق دون فريق أو قوم دون قوم .

وأنت تقرأ أول ما نزل فيه : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ [سورة العلق : ١ - ٤] .

فالإنسان وخلقه والقلم وما يتعلق به من علم ومعرفة — الحديث عن ذلك كله لا يمكن أن يكون لبيئة دون بيئة أو زمان دون آخر .

والإنسان هو الإنسان في خلقه وتكوينه مهما اختلف الزمان أو المكان ، وكذلك ما يتصل به من أداة الفكر وأسباب العلم .

وإذا قال القرآن الكريم : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ [سورة العنكبوت : ٥٦] – فأي أرض يمكن أن تخصص لعبادة الله ؟ وهل يمكن أن تكون تلك الأرض جزيرة العرب وحدها ؟ ثم إذا تحدث القرآن عن الأنبياء في اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم حديثا يذكرنا فيه برسالتهم وما جرى معهم ومع أقوامهم الذين خالفوهم – فهل يمكن أن يكون هذا الحديث خاصا بالعرب وحدهم أو بما يشاهدونه في جزيرتهم ، مع أن العبرة في هذا الحديث قائمة للبشر جميعا مع اختلاف الزمان والمكان ؟

ثم مَن المقصود من العباد في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [سورة إبراهيم : ٣١ – ٣٤] .

يقول الأستاذ العقاد :

« من يقرأ وصف هؤلاء العباد الذين سُخِّر لهم البحر ، وسُخِّرت لهم الأنهار ، وسُخِّر لهم الليل والنهار – لا يخطر له لحظة أنهم أبناء الجزيرة العربية دون غيرهم من بني الإنسان في جميع البلدان ! » .

ومثل ذلك كثير من آيات الله التي لا يمكن أن يتصور أي إنسان له أدنى صلة بالقرآن الكريم أن هذا الكلام لجيل دون جيل أو قبيل دون قبيل .

إنه كلام رب العالمين للناس أجمعين .

وكونه بلسان عربي ليس إلا وصفا له باللغة التي نزل بها .

وإلا فمن دخل الإسلام من غير العرب أضعاف أضعاف من دخلوه من العرب ، وإذا نحن تأملنا النسبة في عصرنا الحاضر وجدنا أن الذين ينطقون بالضاد لا يمثلون في أعلى نسبة لهم إلا خمس من ينتسبون إلى الإسلام نفسه .

روى الحافظ ابن عساكر قال : جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي ، وصهيب الرومي ، وبلال الحبشي ، فقال : هؤلاء الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل (يعني النبي ﷺ) فما بال هذا وهذا ؟ (مشيرا إلى غير العرب من الجالسين) فقام إليه معاذ بن جبل رضي الله عنه ، فأخذ بتلابيبه ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بمقاله .

فقام النبي ﷺ مغضبا يجر رداءه حتى أتى المسجد ثم نودي : « الصلاة جامعة » فاجتمع الناس ، فخطبهم ﷺ قائلا : « أيها الناس إن الرب واحد ، وإن الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي » .

أرأيت أن العربية هي اللسان ، وأن الوصف بها لا يستلزم أن يكون الدين لأمة دون أمة أو جيل دون جيل ؟

يقول فضيلة الأستاذ الشيخ الغزالي [1] :

لئن كان نبي القرآن عربيا بحكم المولد واللسان . فإنه ليس وقفا على أمة دون أمة . من حيث التعاليم والتشاريع ، وميراثه ملك الناس جميعا على سواء . وحق القيام على دعوته يجب على كل من تبلغه آياته : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٩] .

فإذا افتخرت أمة بأن النبي منها فلتفخر الأمم جميعا بأن النبي لها : ﴿ وَمَا

---

(١) من وحي السيرة .

أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٠٧] .

ومن الخطأ أن نظن في عموم الرسالة وخلودها تحكما في عقليات الأجيال ، وتجاهلا لأحوال الأمم وظروفها المتجددة ، ووقفا لحركات التطور الإنساني نحو الكمال ، فإن تعميم نبوة محمد وتخليدها لم يقصد به إلا المحافظة على ذلك كله لخير الإنسان وحده .

فإن الإسلام قد أوضح الحقائق الأساسية في علاقة الإنسان بالله وبالناس وبالكون ، وربطها بهدي الفطرة وضياء العقل .

أما مسألة الكتب التي أرسلها الرسول ﷺ إلى الملوك في السنة السادسة الهجرية فإن أمر إنكارها وادعاء أنها مختلقة – لتبرير الفتوح تبريرا دينيا – يجعلنا نقطع بأن مصادر التاريخ عند القائلين بذلك هي الهوى والحقد اللذان يمليان على صاحبهما أن يشوه الحقائق وأن يروج الأباطيل .

وإلا فمن ينكر رد المقوقس على الرسول ﷺ وإرساله مارية التي أنجبت للرسول ﷺ ابنه (إبراهيم) .

إن إرسال الكتب إلى عظماء الملوك أمر ثابت في التاريخ . دلت الأيام على واقعيته ، كما دلت الكتب على طبيعة الدعوة ، وأنها لجميع الناس ، فمن الثابت في التاريخ أيضا « أن الرسول ﷺ قال لأصحابه وهو يوجههم : إن الله بعثني رحمة وكافة ، فأدوا عني رحمكم الله » . قال ابن هشام : أرسل الرسول ﷺ دحية الكلبي إلى هرقل قيصر الروم ، وعبد الله بن حذافة السهمي إلى خسرو ابرويز كسرى الفرس ، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس أمير مصر من جهة قيصر ، وعمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة .

هذا عدا الرسل الذين أرسلهم إلى عمان واليمامة والبحرين واليمن .

وهذه الكتب وما اشتملت عليه من الآية الجامعة تدل دلالة قاطعة على أن

من أُرسِل إليه الكتاب لم يُدع إلى الإسلام وحده وإنما الدعوة للناس جميعا فمن صد عنها تحمل إثم أتباعه ، وتلك صورة كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ..

أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الاريسيين [1] . ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٦٤] » .

ألا إن الذين يحاولون أن يختلقوا أن الرسول لم يفكر يوما في دعوة غير العرب إلى الإسلام ، ليردعهم أن الإسلام قد احتضن من أول يوم بلالا الحبشي ، وصهيبا الرومي ، وسلمان الفارسي .

وقد رأى الرسول ﷺ أن هذه طلائع الثمار للدول التي تشرق عليها شمس الإسلام ، في وقت لم ينتشر فيه بعد مد الإسلام ولم يكثر عدد الداخلين فيه وهو يقول وقد رأى طلائع الثمر بين يديه :

« إن بلالا أول ثمار الحبشة ، وإن صهيبا أول ثمار الروم » .

كما يردعهم أن كتاب الإسلام قائم لم يتناوله التحريف أو التبديل ، وهو في منعة من هذا كله إذ تكفل رب العالمين بحفظه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٩] . إنه كتاب الله للعالمين ، ناطق بحقائقه وآياته ، متسق مع الكون بفطرته وحياته . هاتف بالصدق ، قائم بالحق ، شاهد بالعدل ، « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » عجزت الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا :

---

(١) الفلاحين .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

[سورة النساء : ٨٢] .

وبعد : فإن وطن المسلم هو العالم كله .

وميدانه الذي يطوف فيه هو الكون الواسع بأفلاكه ونجومه ، لأنه يحيا بكتاب يجعل سعيه في الأرض بوحي السماء ، فهو بين هذه وتلك إنسان رباني يحد بحدود إيمانه ، ولا ينحصر في سدود أوطانه .

يقول شاعر الإسلام محمد إقبال في بيت له :

« المسلم الرباني ليس بشرقي ولا غربي ، ليست وطني دهلي ولا أصفهان ولا سمرقند ، إنما وطني العالم كله » .

« إن المسلم لا تعرف أرضه الحدود ولا يعرف أفقه الثغور .

ليست دجلة والنيل ودانوب إلا أمواجا صغيرة في بحره المتلاطم » .

* * *

obeikandl.com